٤٨

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى مُنَبِّهاً لهم على ما أضاعوه في عُمرهم القصير في الدنيا، من طاعة الله تعالى وعبادته: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا ؟ قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ أي: الحاسبين. قال تعالى: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾ أي: مُدَّةً يسيرةً على كُلِّ تقديرٍ ﴿ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ لَمَا آثرتم الفاني على الباقي، ولَمَا تصرَّفتم في أنفسكم هذا التصرُّف السيء، ولا استحققتم من الله سخطه في هذه المُدَّةِ اليسيرة.

فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته - كما فعل المؤمنون - لفُزْتُم كما فازوا.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ أي: أَفظننتم أنكم مخلوقون

---

(١) المؤمنون: ١١٢- ١١٦.

عبثاً، بلا قَصْدٍ، ولا إرادةٍ منكم، ولا حكمةٍ منَّا ؟ وقيل: للعَبَثِ، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خُلقت البهائم، لا ثوابَ ولا عقاب. وإنا خلقناكم للعبادة، وإقامة أوامر الله ﷻ.

﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي: تعودون في الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [1] أي: هَمَلاً.

وقوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: تقدَّسَ أن يَخلُقَ شيئاً عبثاً؛ فإنه الملك الحق المُنـــزَّه عن ذلك ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾.

روى ابنُ أبي حاتم عن رجلٍ من آلِ سعيد بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « كان آخر خُطبة خطبها عمرُ بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن حَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: أمَّا بعدُ، فيا أيُّها الناس: إنكم لم تُخلَقوا عبثاً، ولن تُتركوا سُدىً، وإن لكم معاداً ينـــزل الله فيكم؛ للحُكم بينكم والفصلِ بينكم، فخاب وخَسِرَ وشقي عبدٌ أخرجه الله من رحمته، وحَرَمَهُ جنةً عرضها السموات والأرض. ألم تعلموا أنه لا يأتي عذابُ الله غداً إلاَّ من حَذِرَ هذا اليوم وخَافه، وباع نافداً بباقٍ، وقليلاً بكثيرٍ، وخوفاً بأمانٍ. ألاَ ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقين، حتى تُردُّوا إلى خيرِ الوارثين ؟ ثم إنكم كل يومٍ تُشيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله ﷻ، قضى نَحْبَهُ، وانقضى أجلُه، حتى تُغيِّبوه في صَدْعٍ من الأرض، في بطن صَدْعٍ غير مُمَهَّدٍ ولا مُوسَّد. قد فارَقَ الأحبابَ، وباشَرَ الترابَ، وواجَهَ الحسابَ. مُرتَهَنٌ بعمله، غنيٌّ عمَّا ترك، فقيرٌ إلى ما قدَّم. فاتقوا الله عبادَ الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم » ثم جعل طَرْفَ ردائه على وجهه، فبكى وأبكى مَن حوله.

---

(١) القيامة: ٣٦.

أخي المسلم: ذاكَ مِمَّا ذكره الإمامُ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

ومَن تدبَّرَ ما جاء في هذه الآيات عَرَفَ ما تدلُّ عليه، وأدرك ما تُوحي به، وما تدعو إليه من حُسْنِ استقامةٍ ويقينٍ.

إنها مُبَصِّرةٌ للإنسان بما يجب أن يكونَ عليه. ومُذَكِّرةٌ له بما يصيرُ إليه؛ فإن الإنسانَ لم يُخلَق عَبَثاً ولا باطلاً. فلا بُدَّ من العَوْدِ إلى الله، والحسابِ بين يديه.

﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

وعُمْرُ الإنسان في دُنياه مهما طَالَ فهو سريعُ التَّقضي، سريع الزوال. والسُّنُون الطُّوال إذا مضتْ غَدَت وكأنها دقـائق وثوانٍ. والإنسان يَمُرُّ بالدنيا مروراً ولا يُقيم « كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » (٢)

﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ (٣)

---

(١) المجادلة: ٦.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم ٢٢٩٩، وقال: هذا حـديث حسـن صحيح.

(٣) لقمان: من الآية ٣٤.

فليُدرك الإنسانُ - في رُشْدٍ - حكمةَ خَلْقه، وغايةَ وجُوده؛ فإن مَن جَهِلَ حكمةَ خَلقه، أفسدَ ولم يُصلح، وأساء وهو يحسبُ أنه يُحسنُ صُنعاً !

والقرآن الكريم قد أَجْمَلَ حكمةَ الخَلق، وحصرها في: إخلاص العبادةِ لله وحده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

والعبادةُ ذات منهجٍ يستقيم به الإنسانُ في جميع أمره، فيُحسن ولا يُسيء، ويُصلحُ ولا يُفسد، ويذكر ربَّه في كُلِّ شأنٍ ولا ينساه.

العبادةُ ذات منهجٍ يُتَّبع يُحقق للإنسان - في نفسه ومع غيره - الهداية والطمأنينةَ، والأمن والسلام في دُنياه وأُخراه. قال ﷺ: « إنِّي قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا (٢) بعدهما: كتابَ الله وسُنَّتي » (٣)

والعبادة التي خُلِقَ الإنسانُ من أجلها سيُسألُ عند الله عنها. ولا عذرَ بعد بيانٍ، ولا حُجَّةَ بعد إعذارٍ وإنذار.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الضلال: الضياع والميل عن الصواب.

(٣) الحاكم في المستدرك (١/١٧٣) رقم ٣١٩، الدارقطني في سُننه (٤/٢٤٥) رقم ١٤٩.